مقتل الزرقاوي .. الأبعاد محلياً وعربياً ودولياً

د.احمد باهض تقي *

جاءت عملية القضاء على ابي مصعب الزرقاوي بغض النظر عن اليات تنفيذها وحيثياتها لتشكل انعطافة مهمة في مسيرة البناء الجديد للعراق، ويمكن مناقشة هذه القضية من خلال الابعاد الآتية:

البعد الداخلي

تعطي عملية القضاء على ابي مصعب الزرقاوي مدلولات وابعاداً في غاية الاهمية على مستوى الداخل العراقي من اهمها:

١- تؤكد اولا ان المجتمع العراقي مهما حاول اعداؤه في شق وحدته الوطنية فانه لن يتوانى في الوقوف بوجه تلك الموجات الفكرية الارتدادية.

٢- إن التأكيد على مسألة الطائفية وإثارتها في العراق هي قضية خاسرة وان مغازلة فئة دون أخرى، وان تحقق بعض الاستجابات من هنا او هناك الا انها بالتأكيد قضية مرفوضة من عامة الشعب.

٣- إن مقتل الزرقاوي في منطقة كانت حتى وقت قريب لاتشهد عمليات من ذلك النوع الذي ينفذه الزرقاوي وانصاره، يعني انه خسر مواطئ قدمه في مناطق اخرى كان من المتوقع ان تكون حاضنة له، مما يستوجب على الحكومة الجديدة التحرك وبشكل فعال وجاد وموضوعي في الحوار مع ابناء المناطق التي تشهد عمليات عسكرية متواصلة، مما يزيد من معاناة العامة من ابناء الشعب في هذه المناطق ،ولذلك لابد من الحوار وليس غيره سبيلا للتعرف على اسباب ذلك التدهور الامني فيها ومعالجة الخلل في الاجراءات كي يحس ابناء الشعب في هذه المناطق، إن هذه الحكومة هي حكومتهم إنهم سيصبحون درعها الحصين والمدافعين عنها.

٤- تاكيدا على ما تقدم فان ذلك يعطي مؤشرا أن كثيرا من الذي يحصل في هذه المناطق هو خارج ارادة الزرقاوي واتباعه فلا بد من تشخيص أسباب ذلك وإيجاد السبل الكفيلة لوضع الحلول المناسبة.

٥- ان القضاء على الزرقاوي مع بدء تشكيل الحكومة الجديدة يدفع باتجاه اعطاء مؤشرات وارسال رسائل الى كل الذين يراهنون على العودة بعجلة التاريخ الى الوراء بان لاسبيل امامهم الا العودة الى رشدهم والمساهمة في بناء العراق الجديد وتجاوز الصعاب.

٦- يعطي مقتل الزرقاوي دفعة قوية وفعالة للحكومة الجديدة في بسط سيطرتها على البلاد، خصوصا انها تتمتع بتأييد شعبي وسياسي محلي ورسمي اقليمي ودولي واسع النطاق لم يتوفر لسابقاتها، مما يحتم عليها استثمار هذا الفوز وتحقيق نصر حاسم على كافة معاقل الارهابيين اينما كانوا وحيثما وجدوا.

٧- ومثلما على الحكومة ان تمسك بكافة مفاتيح الحلول الامنية، فان عليها أن تمسك بغصن الزيتون بنفس القوة التي تمسك بها السلاح، وذلك كي يتسنى لكل من اغوته ودفعته الظروف للانحراف عن مسيرة هذا الشعب بالعودة الى رشده، وعندها تتحقق المكاسب حتى لو عاد الى الصف شخص واحد، ولتنتفي حينها الاعذار عن اولئك الذين يعرقلون مسيرة هذا البلد.

٨- على الحكومة ان تتبنى خطاب الشعب فهي الحكومة المنتخبة وهي الحارس الامين لحقوقه وامنه، ولذلك عليها ان تكون صريحة وواضحة غاية الوضوح وان لاتنحدر في المجاملات على حساب حقوق الشعب، وعليها ان تتصرف في سلوكها الدولي والاقليمي وفقا لمصالح العراقيين ومواقف البلدان الاخرى من قضاياهم، واهمها الموقف من قضية القتل الجماعي الذي مارسته وتمارسه العصابات الارهابية بحقهم يوميا وعلى رأسها جماعة أبي مصعب الزرقاوي.

٩- على الحكومة أن تستثمر وبشكل كبير حالة التفاؤل التي تسود الشارع العراقي وانعقاد الامل في بسط الامن والاستقرار، ومن ثم قتل رأس الإرهاب الزرقاوي، وانعكاس ذلك كله على نظرة البيئة والمحيط الدوليين الى العراق ومن ثم بالامكان تشجيع المستثمرين في التوجه نحو العراق، المساهمة في خلق فرص العمل واقامة المشاريع الاقتصادية التي من شأنها أن تحل الكثير من عقد ومشاكل الاقتصاد العراقي.

البعد العربي – الإقليمي:

١- لابد من القول ان الموقف العربي –الاقليمي ازاء العراق قد شابه الغموض والتردد في احيان كثيرة والريبة والشك في احيان أخرى، حتى بات من الصعب تفسير الكثير من المواقف السلبية التي وقفتها اغلب الانظمة السياسية العربية على اختلاف توجهاتها، وصار الإعلام العربي ممثلا حقيقيا للتوجهات السياسية لتلك الانظمة ومواقفها حيال العراق والتطورات السياسية الجارية فيه.

وقد تجلت صور هذه المواقف بوضوح من خلال المواقف السلبية من قضايا القتل الجماعي الذي مارسته وتمارسه الجماعات الإرهابية في العراق، حتى ان العديد من هذه الانظمة في خطابها السياسي والاعلامي تعد تلك العمليات من نوع العمليات المقاومة للاحتلال والوجود الاجنبي في العراق، وإن ما يجري هو حق مشروع حتى وإن قتل آلاف العراقيين، وبنفس الوقت اذا جرت تلك العمليات في بلدانهم فهي تعد إرهابا وتقويضا للأمن الوطني، وهذا ما يؤكد حقيقة النفاق السياسي الذي تمارسه تلك الانظمة في سلوكها السياسي الداخلي والخارجي.

وما موقف حركة حماس التي تشكل الحكومة الفلسطينيةالحالية إلا مثال صارخ وواضح على ذلك، والمؤلم في الأمر إن ذلك يعد نكرانا وتنكرا لتضحيات الشعب العراقي من أجل القضية الفلسطينية، وربط تلك التضحيات بكونها جزءا من مواقف نظام صدام المقبور، متناسين ان اعظم تلك التضحيات قدمها العراقيون قبل حكم النظام السابق.

٢, إن المواقف المترددة للانظمة السياسية العربية ازاء العراق وعدم تقديم الدعم الواضح والجلي لشعبه، تأتي انسجاما مع الازمة الحقيقية التي يعيشها الفكر العربي بكل ابعاده، ذلك الفكر الذي اوصل العرب الى ادنى مراحل الانحطاط والتخلف وجعل منهم أمة تجلس في القاطرة الاخيرة من قطار التطور العالمي، ذلك الفكر الذي انشغل كثيرا بتمجيد السلاطين ورموز الطغيان، ويكفي لنا ان ننظر الى الخارطة السياسية للبلدان العربية ، فاننا نجد ان الحاكم العربي إما أن يموت ويذهب الى مزبلة التاريخ، أو يبقى متسلطا على رقاب الشعب، وحتى الشعوب في البلدان العربية اوهموها بأن عليها طاعة اولياء الأمور حتى وان كان ولي الامر يصلي الجمعة يوم الاربعاء، وأن يحج في شهر محرم وأن يصوم في ذي القعدة، حتى أضحت هذه الشعوب كسولة خاملة لاتشعر باي معيار للتطور واللحاق بركب الحضارة، ولاغرابة حينها أن تنمو وتتوالد وتتكاثر بسرعة تفوق سرعة تكاثر الاميبا تلك الافكار التكفيرية والمتطرفة والشوفينية لتتسيد الفكر العربي، بفعل البيئة الملائمة لها.

٣, ولا غرابة أن نجد في الوقت نفسه الساحة السياسية العراقية ميدانا لتصفية الحسابات بين الانظمة الاقليمية ذات السياسة المتقاطعة مع السياسة الامريكية، ليصبح العراق ساحة المواجهة على حساب دماء شعبه وحقوق اهله .

٤, وهنا يأتي مقتل الإرهابي أبي مصعب الزرقاوي ليؤكد حقيقة المواقف العربية ازاء ما يجري في العراق من تطورات ايجابية، ومن إشاعة للحريات والممارسات الديمقراطية على الرغم من الوجود الاجنبي على اراضيه، كما تؤكد تلك المواقف حقيقة الخوف الواضح والجلي من تلك التحولات وان رافقتها بعض السلبيات ، من ان تشجع الشعوب العربية والمجاورة في المطالبة بحقوقها في الحرية والديمقراطية ، ولعمري ان هذا السبب كاف في ان يدفع العديد من الحكام العرب نحوتلك المواقف السلبية، ويحاولوا بكل ما يملكون من قوة عرقلة العملية السياسية في العراق واشاعة الفوضى فيه، كي يعطوا إشارة إلى شعوبهم بأن التغيير يعني الفوضى وان الديمقراطية لاتصلح للشعوب العربية والاسلامية.

٥, لقد أعطت عملية مقتل أبي مصعب الزرقاوي مؤشرا واضحا عن مدى تغلغل الفكر التكفيري في اوساط الشعب والانظمة السياسية في كثير من البلدان العربية من خلال تلك المواقف المعلنة أو غير المعلنة من هذه القضية، ونعتقد إن سبب ذلك هو ماذكرناه سابقا حول ازمة الفكر العربي، فضلا عن رداءة وضعف الخطاب السياسي للانظمة السياسية العربية تجاه القضايا المهمة والمصيرية التي واجهت وتواجه المنطقة بأسرها.

٦, إن التأييد النسبي والملحوظ في الاوساط الشعبية والاعلامية العربية والصمت الذي مارسته الاجهزة الرسمية العربية حيال عملية مقتل أبي مصعب الزرقاوي، يؤكد وبشكل جلي السلوك المزدوج والكيل بمكيالين الذي تتبناه هذه الاوساط ازاء قضية العراق وشعبه وبين القضايا الاخرى التي تحصل في العديد من البلدان العربية، فالذين سقطوا في الاردن اثر تفجيرات الزرقاوي هم شهداء وان الذين يسقطون في العراق هم غير ذلك، لا بل إن الأمر وصل عند البعض بان ذلك الامر جهاد وقتال ضد العملاء.

البعد الدولي :

منذ أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ تخوض الولايات المتحدة الامريكية حربا اطلقت عليها الحرب العالمية ضد الارهاب، وجاءت الحرب في العراق تحت ذلك العنوان والسياق فيما هو معلن على الرغم من إن السيطرة على العراق تأتي ضمن مبررات اوسع واكبر، ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة اسباب الوجود الاميركي في العراق، إذ يأتي مقتل أبي مصعب الزرقاوي عقب الكثير من الجرائم التي اقترفها و ليعطي المدلولات الآتية :

١, إن ذلك يعطي مبررا للخطاب السياسي الاميركي الذي يتبنى الوجود الاميركي في العراق، في إنه لولا القوات الاميركية لما تم القضاء على أبي مصعب الزرقاوي وإن القوات العراقية بمفردها غير قادرة على مواجهة الإرهابيين، لعدم جاهزيتها عددا وعدة.

٢, إن ذلك يلجم افواه الكثير من الذين هم ينتقدون سياسة الرئيس الامريكي في العراق ويتهمونها بالفشل، سواء من اعضاء الكونغرس أو الصحافة أو من بعض بلدان اوربا كفرنسا أو ألمانيا، أي إن قتل الزرقاوي اعطى مؤشرا ايجابيا بجدوى الحرب في العراق والبقاء فيه وإن ذلك وجه ضربة كبيرة لتنظيم القاعدة،والذي شن العديد من العمليات الارهابية التي حصلت وبضمنها هذه البلدان.

٣- إن مقتل الزرقاوي يعطي دفعة مهمة نحو تشجيع المنظمات الدولية والبلدان الكبرى والمانحة في الاهتمام بالعراق من خلال اشاعة الشعور باتجاه الاوضاع فيه نحو الاستقرار بعد القضاء على رأس الإرهاب فيه، وبالتالي حصول العراق على منافع ومكاسب من شأنها الخروج بالبلاد من الازمة الاقتصادية التي تمر بها .

٤, إن ذلك يعطي مدلولات ومؤشرات لجميع المنظمات الارهابية في العراق أو العالم، بأن العراق لا يمكن أن يكون انموذجا لأفغانستان أو أي بلد آخر ينمو فيه الارهاب بفعل العوامل الاجتماعية والسياسية والحضارية التي يتميز بها الشعب العراقي وبالتالي سهولة الكشف والقضاء على تلك المجاميع الارهابية، فضلا عن الطبيعة الطوبوغرافية التي تميز العراق والتي تجعل من الصعب لهذه المجاميع الارهابية التخفي فيها والاستمرار بذلك التخفي مدة طويلة.

رؤية مستقبلية:

إن مقتل الزرقاوي وان لم ينهِ العمليات الإرهابية في العراق إلا أنه يعد ضربة قاضية لتنظيم أقيم وبني أساسا على أساس تنظير قائده وسلوكه، ويؤكد حقيقة مفادها إن العراق يسير باتجاه الاستقرار والأمن والتطور المنشود، وإنه لا مكان للفكر التفكيري في العراق وإن تأخر ذلك بعض الشيء.

كما يؤكد حقيقة إن ضيق الحريات السياسية والمدنية في البلدان العربية والاسلامية ساهم في نمو وازدياد ظاهرة الانحراف في الفكر الاسلامي وتبني الافكار التكفيرية، وارتباط ذلك كله بمراكز المال العربي في العديد من البلدان العربية مما يشكل غطاء داعما له.

و يصبح لزاما على المراكز الدينية والمدارس والجامعات في البلدان العربية والاسلامية التصدي الى الافكار المنحرفة، من اجل اشاعة الاعتدال والوسطية في المجتمع والابتعاد عن التطرف.

* مدير مركز الفرات للتنمية والدراسات الستراتيجية/ كربلاء

قراءة في أوراق اسبوع المدى الثقافي:

الدولة العراقية واشكالية الهوية السياسية

بغداد / علي المالكي

أتاح اسبوع المدى الثقافي للمثقفين العراقيين في مختلف حقول الثقافة ان يمارسوا في مناخ من الحرية النقد الثقافي للعديد من جوانب الحياة والثقافة في العراق ولعل القراءة النقدية للكاتب والباحث حسين درويش العادلي التي تضمنتها ورقته المعنونة (الدولة العراقية واشكالية الهوية السياسية) تمثل واحداً من نماذج النقد الثقافي في حقل الثقافة السياسية التي تؤسس لرؤية نقدية للتجربة السياسية في العراق.

اشكالية الهوية

يرى الباحث ان اشكالية الهوية السياسية للدولة العراقية قد شكلت ازمة على مستوى الخطاب، والممارسة السياسية لدى اغلب المدارس العراقية ويعتقد ان ذلك يمثل انعكاساً للفشل الذاتي في التعاطي مع استحقاق قيام الدولة الوطنية كواقع جديد على الارض، دون ان ينسى دور العامل الخارجي الاقليمي والدولي الذي اضر بمحاولات انتاج الهوية الوطنية على اساس من الخصوصية العراقية "ان الاساس في فشل انتاج هويتنا الذاتية هو فشل عراقي افرزته المدارس والنخب المتصدية لفعل الدولة، فالسؤال القلق: لماذا نجح مشروع الدولة لدى غيرنا، وفشل مشروع الدولة لدينا؟ وهل الاحتلال اسقط الدولة ام انه اتى الى دولة ساقطة ذاتا بفعل سقوط مشروعها المستند الى هويتها في العمق؟ ومن المسؤول الاول عن سقوطها (الدولة) الذاتي الذي احالها الى فريسة للفتن والكوارث والاطماع الداخلية والخارجية؟ اليست هي المدارس والنخب على تنوع فعلها ونتاجها وبرامجها المتعاطية مع استحقاق قيام الدولة منذ عام ١٩٢١؟ اليس سقوط الدولة كان حصيلة مناهج التجاهل والتعويم لاستحقاق قيام الدولة التي تعاطت معها وفق قواعد الاوهام والشمولية والاستبداد واحتكار الحقيقة وعدم الاعتراف بالاخر؟"

ويلاحظ العادلي ان اشكالية الهوية كمأزق تتشاطره مفاهيم ومقولات ووظائف مفاهيمية وبنيوية من قبيل (الوطن العربي، الامة العربية والدولة القومية، والوطن الاسلامي، والامة الاسلامية والاممية والدولة الاشتراكية..) الامر الذي افقد هوية الدولة في الانتماء والتشكل والدور كما قاد الى تمزق الذات الوطنية

مناشيء الاشكالية العراقية على اساس الهوية السياسية الوطنية الجامعة لكل الهويات الجزئية او الفرعية وانطلاقاً من الوعي العميق لمفهوم الهوية الوطنية والمفاهيم المذكورة آنفا.

وعن علاقة (الدولة) بـ(الهوية) يرى الباحث ان من مآزق انتاج الهوية السياسية: افتقاد مشروع الهوية على المستوى البنيوي الوطني الشامل، والدمج المقصود بين الدولة والسلطة في الكيان والدور والوظيفة، وافتقادها للحواضن السلمية والطبيعية والمعتدلة، يقول ان (اندثار دولتنا مصداق لفشل المنظومات الثقافية والسياسية والحضارية في انتاج الهوية الحديثة، وهو درس على نخبنا وقوانا الوطنية وعيه بدقة في مراحل التأسيس لدولة عراقية جديدة..)

وفيما يخص (المواطنة) و(الهوية) يلاحظ الباحث ضرورة ان تكون الدولة، دولة المواطنة قبل اية صفة اخرى يقول (كل دولة تقام على اساس من الهويات الفرعية هي دولة ما قبل المواطنة فالدولة القطرية والقومية تقودان الى تجزئة الدولة الوطنية، والدولة الدينية والاممية تقودان الى تقويم الدولة الوطنية، فلا يمكن انتاج الهوية السياسية وبناء الدولة الحديثة الا على اساس الدولة الوطنية المعتمدة للمواطنة كمبدأ وقاعدة تستندها الدولة).

ويجد الباحث ان الاستبداد السياسي كان واحداً من اهم معالم هوية الدولة العراقية، بسبب افتقادها للديمقراطية التي تضمن حل مشكلة السلطة وتداولها الانتخابي.. ومن ثم فأن من اهم ركائز انتاج هوية سياسية عراقية حديثة يتمثل باعتماد الديمقراطية فالديمقراطية لا يمكنها ان تنتج بشكل مجزأ او انتقائي بل لابد من الربط بين الجوانب السياسية للمفهوم من جانب ومؤشرات شرعية النظام والمساءلة من جانب اخر، وتبني نظام الدولة لسياسات مترابطة تتمثل بحكم القانون والشفافية والاستجابة والمشاركة والانصاف والكفاءة والمساءلة والتنمية والرؤية الاستراتيجية والاصلاح الاداري..ويخلص الى ان امثل شكل ديمقراطي منتج لهوية سياسية في دولة متزنة يقوم على :حاكمية القانون وسيادة المؤسسات الدستورية، والسلطة المختزلة والكفوءة، وفاعلية المجتمع المدني.

ويعتقد الباحث ان الفيدرالية ضرورة سياسية واجتماعية واقتصادية يمكن بواسطتها حفظ خصوصيات المجتمع المحلية على تنوعها العرقي والطائفي والثقافي، فضلاً عن تحقيقها للشروط الامثل للتنمية اضافة لاعتماد اللامركزية الادارية لتنظيم صيغ الادارة مع الاقاليم فالنظام الفيدرالي واللامركزي يحقق مستويات امثل من المشاركات الشعبية في الشأن العام للبلاد، وكل ذلك يعزز السلام والتعايش الوطني ويسهل عمليات الاندماج لانتاج هوية وطنية جامعة.

وفي سياق قراءته النقدية لاشكالية الهوية السياسية للدولة في العراق وجد الباحث اسباباً عديدة تقف وراء اخفاق المدارس والنخب العراقية في ادراك ووعي (اشكالية الهوية الوطنية) للدولة في العراق.

وقد دعا تلك الاسباب بالمناشئ واول تلك المناشيء الاسباب المنشأ الايديولوجي)، وفي رأيه (ان المدارس العراقية- القومية والماركسية والاسلامية التقليدية –لم تلحظ مازق الهوية الوطنية في ابعاد ارتسامها الواقعي عندما مارست عملية شد الدولة لهوياتها العقدية والسياسية الخاصة على حساب انتاج الهوية العراقية الوطنية الجامعة والسبب الاساسي انها أسست خطاب هوية الدولة الحديثة بمعزل عن قيام وثبوت الدولة الوطنية ومتلازمات صناعة هويتها الجديدة) وقد اضر التخندق الايديولوجي او الصراع كان –وما زال- ميدانه الهوية المعبرة والناظمة لفعل الدولة بمكوناتها، مما ادى الى فشل المجتمع في انتاج ذاته وفشل الدولة في انتاج ذاتها على مستوى الهوية الحديثة، فكل يريد الدولة على وفق مرجعيته الايديولوجية وثاني الاسباب او المناشيء هو المنشأ النخبوي، فالنخب العراقية – بحسب رأيه- انتج فعلها ثقافة التعويم لكيان الدولة الوطنية فحساب انتماءات حالمة وزائفة لا وجود لها على الارض ودون ان تجعل من انتاج هوية وطنية واقعية وخاصة همها الاول، وفي فعلها الجهوي الضيق المتأثر بالانتماء الخاص العرقي والطائفي والسياسي فأدت الى ترسيخ الهويات (الفرعية) المجذرة للانتماءات والولاءات الضيقة.

وثمة المنشأ التاريخي والذي يمثل له الباحث بادعاء امتلاك الوطن تاريخياً واحتكار تمثيله لشريحة عرقية او طائفية معينة او يرى ان الدولة عندما فشلت في تمثيل الكل الوطني، وانكفأت عن الاعتراف بالمكونات انعشت مشاريع الهويات الخاصة المتغذية عرقياً وطائفياً.

علاقات الهوية الوطنية

وينتقل الباحث الى رصد علاقات الهوية الوطنية بـ(الدولة، المواطنة، الديمقراطية، القانون، الفيدرالية واللامركزية ، الشفافية والمساءلة، المجتمع المدني، التنمية) حيث كشف قصور النظر لعلاقة الهوية الوطنية بالمفاهيم الانفة على مستوى النظرية والممارسة السياسية (البراكسيس) ليطرح رؤيته التي تصب في الدعوة الى تجديد النظر الى خطورة (الهوية الوطنية)، واعادة انتاجها على وفق الكتل الوطني حيث تتلاشى الهويات الفرعية في الهوية العامة (الوطنية) مع الاحتفاظ بالخصوصيات وكل ذلك من اجل ان تتأسس الدولة.

اما عن علاقة الشفافية والمساءلة بالهوية الوطنية، هوية الدولة، فان الباحث يرى ان من مستلزمات بناء هوية الدولة توافر المساءلة وجعلها ثابتاً ادارياً اضافة لخلق الشفافية المطلوبة بالتدفق الحر والمتواصل للمعلومات، ويعتقد بان الشفافية من افضل الطرق لنيل ثقة الجمهور كونها تضعهم امام الحقائق ويعدها عنصراً رئيساً من عناصر المساءلة، وبالمثل ينظر لعلاقة المجتمع المدني بالهوية باعتباره عنصراً ضرورياً في صناعة الهوية السياسية الحديثة للدولة، وفي الاخير يقرر بان الادارة التنموية الدقيقة والحازمة والقادرة على ادارة مجمل عمليات النمو المجتمعي هي قرين انتاج الدولة القوية المتطورة).